جامعة محمد لمين دباغين سطيف -2
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم الفلسفة

Université Mohammed Lamine-Debaghine Sétif-2
Faculté des sciences sociales et humaines
Département de Philosophie

سلسلة محاضرات مقياس تاريخ العلم

للسنة الثانية ليسانس

فلسفة عامة

المحاضرة الرابعة: تاريخ العلوم في العصور الوسطى (روما-المسيحية)

د. طرابلسي عمار

السنة الدراسية 2024/2023

أولا: انتقال العلوم من اليونان إلى روما.

لقد كانت الحركة التبادلية بين اليونان وروما جغرافيا هي الأقرب بالنسبة لشعوب الحضارتين، ومع بداية انهيار الحضارة الإغريقية، انتقل الكثير من علماء الإغريق خاصة الأطباء إلى روما، وذلك سواء لحاجة روما للكثير منهم في إطار علاج الجيش الذي يقود الحروب الطويلة، أو للاعتناء بالملوك وعائلاتهم، كما أن جزء آخر منهم فر من اليونان القديم هربا من سطوة الحاكمين وتغليب رأيهم ومذاهبهم.

وكان أيضا الاهتمام البالغ من طرف الرومانيين بالعلوم التي لها علاقة دائما ببناء الحضارة، كالطب العسكري والمستشفيات العسكرية، ولابد من أن نشير في هذا السياق، بأن من أزهر مجالات العلم في روما القديم هو التصميم والبناء الاستشفائي العسكري، والذي كان يتناول ضمن العلوم الجغرافية والهندسية المخصصة لذلك، فقد شكلوا هذا التصور الذي يعرفه العالم اليوم عن المستشفيات بجمع كل التخصصات الطبية وفتح العديد من قاعات التداوي في مكان واحد مصمم لالتقاء الأطباء، إذا كانت هنالك الحاجة لأكثر من علاج بالنسبة للعسكريين المصابين جراء الحروب التي تخوضها وما شرقا وغربا.

كما بدأت مع روما أول تشكلات الأبحاث التاريخية الجادة التي قام بها المؤرخ كيوس وحصر فيها كل الحروب التي تخوضها روما وطبيعة الشعوب المحيطة بها، كما كتب عن تاريخ شمال أوربا والتاريخ الطبيعي، ويعتبر هذا العمل مصدر للتعاطي مع المعلومة التاريخية إبان الحقبة الرومانية الطويلة، والذي انتقل بدوره إلى بقية الحضارات ليبقى جزء من شواهد التاريخ الأوربي.

ثانيا: بروزروما المسيحية وضياع الإرث العلمي القديم.

في المرحلة الثانية من الحضارة الرومانية انتقلت من الوثنية القديمة إلى الحكم الجامع بين الأباطرة والمسيحيين الدينيين، وقد شكل هذا التحالف عصرا جديدا روما، فبعد صعود التيار المسيحي في القرنين الرابع والخامس، واستملاكه لسلطة القرار، بدأت تسود ثقافة رفض كل ما يخالف العقيدة المسيحية، خاصة ما تعلق بالفلسفة العقلانية اليونانية التي اعتبرتها الكنيسة، في مصاف الهرطقة واتهمتها بالخروج عن منطق التفكير السليم.

فالمسيحية التي خاضت حربها في القرون الأولى مع بقايا الإغريق وسطوة روما، انتقلت إلى مركزية تشكيل الرؤى النّافعة التي تطابق مبادئ الدين المسيحي، وفي المقابل تجاوز المسالك العلمية والفلسفية التي كانت سائدة قبلها، ويعتد هذا الحضور المسيحي أو الكنسي إلى حد ما، غاية ورغبة مؤسساتية دينية لتنظيم حياة الفرد داخل الدولة المسيحية وفق التصوّر الديني المحض.

واجهت المسيحية كأولى تحركاتها، الفلسفة والعلوم اليونانية ورفضت بشكل قاطع تعليمها للناس أو تناولها مدرسيا، وألقت بكل هيمنتها لمنع إعادة استرداد الفكر اليوناني القديم، "والواقع أن الفلسفة توقفت في أوربا بعد انتصار المسيحية (...) والسبب هو أن رجال الدين اعتبروها وثنية لا تؤمن بالله. وهكذا أدانوا فلسفة أفلوطين وأرسطو ومنعوا تدريسها"، ويستتبع رجال الدين المسيحي هجومهم على الفلسفة

اليونانية بوصفها مزاجا غير حامل للحقيقة الحقّة، التي ينبغي أن تدلي بالإيمان المطلق بطبيعة وجود الله ومركزية العالم اللامرئي على الواقعي، كما هو في الدين المسيحي، فالمرجعية الدينية في هذا المخاض هي بصدد مساءلة الفلسفة الكلاسيكية ورفض منطلقاتها الفكرية وقواعدها المنطقية التي تعتمد عليها، "لقد كانت وجهة نظر هؤلاء الرجال أن المذاهب الفلسفية مختلفة فيم بينها رغم أن الحقيقة واحدة لا تتعدد ولا تنقسم، وما اختلاف الفلاسفة إلا دليل قاطع على بعدهم عن الحقيقة"، فمسوغات المسيحية في رفضها للفلسفة كانت جذرية ولا تقبل النقاش حول طبيعة ما ينبغي قوله والإيمان به.

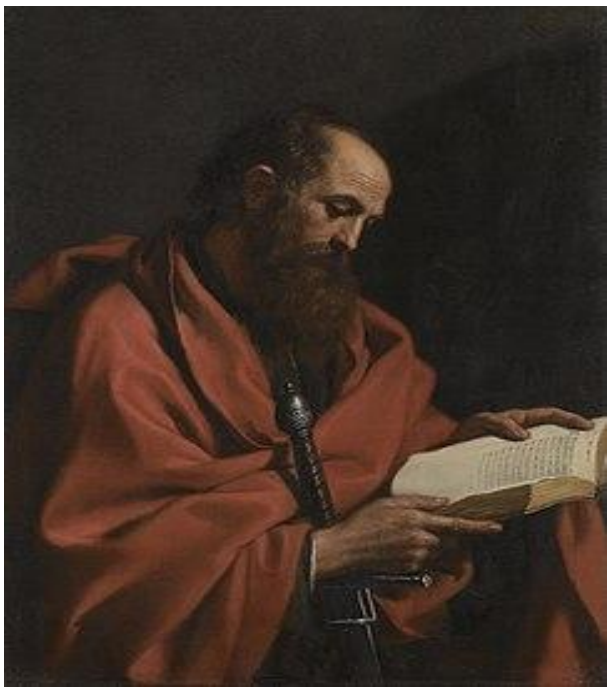

لم يكن وحده الحصار العقائدي الذي فرضته المسيحية على بقية الفضاء الفكري سببا في تضييع الإرث العلمي والفلسفي القديم، وتوقيف عملية تقدم الفلسفة والعلم الإغريقيين، بل إن الحروب التي سادت في أوربا من القرن الخامس للميلاد إلى القرن السابع للميلاد، أيضا سببا وجيها في تلف العديد من الأعمال الرصينة في أوربا.

ينبغي أن نشير أن رفض المسيحية للفلسفة الاغريقية كان هو نفسه رفض أغلب المبادئ العلمية التي قدمها اليونانيون، بما أن الفلسفة والعلم كانا في حالة اقتران بالنسبة للعهد اليوناني القديم، ولم تسلم العلوم من الرفض كما الفلسفة، بما أن مصدر التنظير فيها كان العقل الإنساني بدون الروية الروحية، لذلك فإن المسيحية، لم تقبل سوى ما يوافق النص الديني من بعض النظريات التي قدمها أواخر اليونانيين، أما عن عموم العلوم الاغريقية فقد تم تصنيفها بأنها خارج العقيدة المسيحية.

ثالثا: اللغة القديمة والمعرفة الدينية.

تشير المصادر التاريخية، أن اللغة الأولى للمسيحيين كانت ما ينطق به لسان المشرق الأدنى، من سوريا إلى فلسطين، وهي اللغة الآرامية، فيم يحافظ اليهود على اللغة العبرية التي كان أحبارهم يقرؤونها بشكل جيّد، بما هي لغة الديانة اليهودية، وسادت في مقابل هذين اللغتين ما يسمى باللغة الإفريقية المختلطة بين شعوب البحر الأبيض المتوسط، وغير بعيد عن هذا، كانت اللغة الإغريقية هي لسان العلماء والفلاسفة والتجار.

والحال أن هذا الاختلاف اللغوي بين المناطق التي كانت تجمعها شبكة تواصل، وتقاطع معرفي تاريخي، كان له الأثر المباشر على التراكم المعرفي للمسيحية، وظهور مجال التأويل فيها، إلى حد التناقض في التراجم والتداخل في المعاني، ما أحال مسألة العقيدة على المحك من التوحيد إلى التثليث.

يشير "شيني" إلى المعرفة التي كان يقدمها النبي عيسى للنّاس في قوله "وقد علّم عيسى الناس أن الحب أقوى شيء في الحياة، وتجاهل كل فروق المركز والتعليم، واختلط بكل أنواع الناس، ووعظ كل أنواع الناس: الغني منهم والفقير واليهوديّ منهم والوثنيّ والإغريق منهم والبربريّ غير أننا ما ينبغي لنا أن ننسى أنه كان رسولا إلى بني إسرائيل بصفة خاصة"؛ وهذه الرساليّة تعتبر أول خطوة لانتشار المعرفة المسيحية على أقطاب شعوبية مختلفة، فهي وإن كانت رسالة سماوية موجهة إلى قوم بعينهم، لم تستثني في قيمها التعليمية بقية الشعوب التي التقت بهم وانتقلت إليهم.

والحدث الأبرز الذي يخص المعرفة المسيحية، هو شقها الطريق نحو أقطار جغرافية واسعة، بما أنها تركزت في جوهرها على تقديم التعليم الأخلاقي واللاهوتي، "وقد نقل الإنجيل في سرعة إلى البقاع وفي إحدى الأساطير أن القدّيس توما أخذه إلى الهند. وسمعته قبائل الصحراء العربية. وبه وعظ القديس فيليب الأحباش. غير أن أكبر أعمال التبشير قام بها بولس"، فهذا التوسع الرهيب للمسيحية جغرافيا واعتمادها على التعليم اللاهوتي الذي كان مقتضاه رسالة التوحيد، لم يسلم من الانحراف لاحقا على مستوى الفكر العقائدي الذي تحوّل إلى فكر ديني يؤسس فيه الإنسان للألوهية بتصوراته الجديدة.

والحال أن المسيحيين يعتقدون بصدقية الروايات التاريخية التي كتبها من شهدوا أو حضروا السياق الزمني لظهور رسالة عيسى، بما أن هؤلاء الروّاة كانوا يتقنون اللغات التي تحيط بهم، فهم ناقلوا الرسائل المسيحية إلى القوميات الأخرى، ويذكر لنا "موريس بوكاي" ملمحا تاريخيا يشيد بهذا الرأي "فالمسؤولون عن هذه الطبعات يقدمون صفة شهود العيان من محرري الألأناجيل باعتبارها أمرا بديهيا. ألم يكن القديس جوستين، في منتصف القرن الثاني، يطلق على الأناجيل اسم "مذكرات الرسل"..؟ ثم إن التحديات التي تعلن على الملأ، والتي تخص المحررين هي من الكثرة بحيث إن المسيحي يتساءل: كيف يمكن الشك في صحتها: على سبيل المثال يقال إن متى كان شخصية معروفة، (...) بل يقال أيضا إنه كان يعرف الآرامية واليونانية"، وحتّى

غزارة المعلومات الواردة عن بطرس، مرقس، لوقا وبولس، -حسب المسيحيين- فهي تحمل صفة الدّقة والمصداقية.

بعد هذا الصراع الذي خاضته المسيحية في القرون الأولى، لم يتغير حال العلوم كثيرا، فقد بدأت المؤسسة الدينية المسيحية بالتكوين المدرسي على مستوى الكنائس ودور العبادة التابعة لها، واكتفت بتعليم العلوم الدينية (اللغة، التأويل، التربية..)، وفي مقابل هذا التوقف كانت الحضارة العربية الإسلامية تبزغ من أدنى الشرق بعلومها وحلتها الجديدة.